

الطوائف الدينية وأثرها في تماسك المجتمع العراقي خلال عهد المماليك ۱۷۴۹-۱۸۳۱

أ.م.د. وائل جبار جودة النداووي^۱، د. أرشد حمزة حسن^۲

۱. كلية التربية للعلوم الانسانية / جامعة المثنى

۲. كلية الأمام الكاظم -ع- للعلوم الإسلامية / بابل

ملخص البحث

تضمن البحث مقدمة وثلاثة محاور وخاتمة وضح المحور الاول اثر الدين في تطور الجانب الاجتماعي في العراق خلال عهد المماليك فعلى الرغم من تنوع التركيب الديني فقد عاش الجميع بحالة من الاستقرار والالفة والتأزر، بفضل مبادئ الدين الاسلامي السمحاء التي دعت الى احترام العقائد الدينية لترصين التماسك الاجتماعي، وتابع المحور الثاني المساجد ودورها في ترسيخ الجانب المعرفي للمجتمع العراقي خلال عهد المماليك ۱۷۴۹-۱۸۳۱، وجرى الحديث عن اهم المساجد ودورها في إثراء العادات والتقاليد للمجتمع العراقي و بين المحور الثالث دور الطائفتان اليهودية والمسيحية ومؤسساتها الدينية في تماسك المجتمع في العراق و من نتيجة التسامح والتساهل الذي عاش اليهود في ظلله أبان العهود الاسلامية، أن كثرت معابدهم في المدن العراقية الرئيسية، فكان في بغداد، في منتصف القرن التاسع عشر، تسعة كنس، ومدرسة دينية، وفي الوقت نفسه في الموصل، كنيس واحد ومدرسة، الى جانب بعض المزارات الدينية خارج المدن، و مارس المسيحيون طقوسهم وعاداتهم ومعتقداتهم الدينية في بيوت تعرف بالكنائس او المعابد او الاديرة، التي هي بمثابة بيوت مركزها الكنيسة، تجمع فيها الرهبان لغرض الصلاة المشتركة والتقرب الى الله، وتلك الطقوس والعادات لا تثير حفيظة الطوائف الاخرى بل بالعكس فقد كانت الطائفة المسيحية تشارك تلك الطوائف بأفراحهم واحزانهم.



Summary

The research included an introduction, three axes, and a conclusion. The first axis clarified the impact of religion on the development of the social aspect in Iraq during the Mamluk era. Despite the diversity of religious composition, everyone lived in a state of stability, familiarity and synergy, thanks to the principles of the noble Islamic religion that called for respecting religious beliefs to consolidate social cohesion. The second axis followed the mosques and its role in consolidating the knowledge side of Iraqi society during the Mamluk era. In which the Jews lived in the shadow of Islamic times, when their temples abounded in the main Iraqi cities, so in Baghdad, in the middle of the nineteenth century, nine synagogues and a religious school, and in Mosul, at the same time, one synagogue and a school, along with some religious shrines. Outside the cities, Christians practiced their rituals, customs, and religious beliefs in homes known as churches, temples, or monasteries, which are like homes centered by the church, in which they gather. The monks for the purpose of joint prayer and drawing closer to God, and those rituals and customs do not arouse the ire of other sects, but on the contrary, the Christian community shared these sects with their joys and sorrows.

المقدمة

مما لا شك فيه إن المجتمع العراقي ومنذ قرون طويلة تعيش على ارضه مختلف الطوائف والديانات والقوميات التي انصهرت تحت مسمى الدولة العراقية، وان اختلفت المسميات على مر العهود فكان يسمى ارض العراق تارة، وتارة أخرى يسمى ارض الرافدين أو الفراتين، وكان للديانات اليهودية والمسيحية و الإسلامية وعلى مدى التاريخ دوراً مهماً في رسم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للعراق وقد سلطت معظم الدراسات الضوء على ذلك التاريخ، إلا إن الجانب الاجتماعي وخاصة أثر الدين فيها خلال عهد المماليك في العراق لم يحظ بالبحث والدراسة الكافية.

تضمن البحث مقدمة وثلاثة محاور وخاتمة وضح المحور الاول اثر الدين في تطور الجانب الاجتماعي في العراق خلال عهد المماليك فعلى الرغم من تنوع التركيب الديني فقد عاش الجميع بحالة من الاستقرار واللفة والتأزر، بفضل مبادئ الدين الاسلامي السمحاء التي دعت الى احترام العقائد الدينية لترصين التماسك الاجتماعي، اذ سار المسلمون على قاعدة اساسية فرضتها عليهم طبيعة دينهم وهي، عدم التعرض لمختلف العبادات فلم يساء الى متعبد في عبادته او متدين في ديانتته، فيقوم المسجد الى جوار الكنيسة او المعبد، لا فرق في نظرهم في حرمة وقديسة مراكز العبادته، شعارهم جميعاً الدين لله، وتابع المحور الثاني المساجد ودورها في ترسيخ الجانب المعرفي للمجتمع العراقي خلال عهد المماليك ١٧٤٩-١٨٣١، وجرى الحديث عن اهم المساجد ودورها في إثراء العادات والتقاليد للمجتمع العراقي وخاصة في مدينة بغداد على



اعتبار انها تمثل سلطة القرار في العراق والتي كان لها دوراً مهماً في إرساء دعائم الحياة الفكرية في العراق أبان عهد المماليك.

بين المحور الثالث دور الطائفتان اليهودية والمسيحية ومؤسساتها الدينية في تماسك المجتمع في العراق و من نتيجة التسامح والتساهل الذي عاش اليهود في ظله أبان العهد الاسلامي، أن كثرت معابدهم في المدن العراقية الرئيسية، فكان في بغداد، في منتصف القرن التاسع عشر، تسعة كنس، ومدرسة دينية، و في الموصل، في الوقت نفسه، كنيس واحد ومدرسة، الى جانب بعض المزارات الدينية خارج المدن، مثل قبر العزيز (عزرا) على دجلة، قرب مدينة " العمارة " وقبر ذى الكفل (حزقيال) في ناحية الكفل الى الجنوب من مدينة الحلة، مع أن الأخير يقع في مسجد إسلامي قديم له مكانته لدى المسلمين، ورغم هذا، فإن الأسرة العربية التي تولت إدارة المسجد والأشرف عليه، كانت تسمح لأولئك اليهود بزيادة المكان دونما اى مقابل، و مارس المسيحيون طقوسهم وعاداتهم ومعتقداتهم الدينية في بيوت تعرف بالكنائس او المعابد او الاديرة، التي هي بمثابة بيوت مركزها الكنيسة، تجمع فيها الرهبان لغرض الصلاة المشتركة والتقرب الى الله، وتلك الطقوس والعادات لا تثير حفيظة الطوائف الاخرى بل بالعكس فقد كانت الطائفة المسيحية تشارك تلك الطوائف بأفراحهم واحزانهم، والله ولي التوفيق.

أولاً: اثر الدين في تطور الجانب الاجتماعي في العراق خلال عهد المماليك ١٧٤٩-١٨٣١.

شهد العراق، خلال الحقبة الممتدة من أوائل القرن الثامن عشر حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر تقريباً، تشابك جملة من الظواهر السياسية الاجتماعية، تركت آثارها الواضحة على ممارسة الطقوس الدينية المنصوية تحت مظلة المجتمع العراقي، فضلاً عن الحركة الفكرية فيها آنذاك^(١). في الواقع إن العلاقات السياسية التي كانت بين القوى الاجتماعية القائمة منذ مطلع العصر العثماني، أخذت تستنفد مبررات قيامها، فمثلاً تحولت فرقة الانكشارية إلى مجرد قوة مسلحة لا تجيد غير التصادم والتطاحن في ما بينها، وبقي المجال خالياً لقوى القبائل المحلية، بيد أن تلك القبائل لم يكن نشاطها يعني شيئاً بالنسبة لذلك الواقع، فضلاً عن قيام فئات جديدة في المجتمع (التجار وأصحاب الحرف) بالاهتمام بما يجري حولها من صراع بحكم ما كان يؤديه ذلك الصراع من ضرر بمصالحها الاقتصادية، فظهرت التجمعات الساندة لها وكانت تنظيمات (الأصناف) و(الطرائق الصوفية) أبرز عناصر تلك التجمعات، وكانت فتناً (أهل العلم) و(أهل الأدب) تمثلان عنصراً مكماً لثقافتها وقيمها الجديدة^(٢).

وساعدت طبيعة حدود العراق المفتوحة، ووجود مدن العتبات المقدسة فيه التي كانت مراكز جذب للمسلمين على اختلاف انتماءاتهم المذهبية من كل بقاع العالم، ساعدت على تفسير دوافع العناصر الأجنبية في الهجرة إليه^(٣). وأن الصراع العثماني - الفارسي واحتدام السجلات بين الجانبين كان قد أحال العراق إلى ساحة صراع بينهما مؤثر بذلك في تركيبة المجتمع العراقي وتنظيم الإسلام فيه، إذ عرّض ظهور الفرس الصفويين سكان العراق عموماً، ومدن (كربلاء، والنجف، وبغداد، والبصرة، والحلة) خصوصاً إلى مؤثرات



فارسية كثيرة^(٤)، وفي مطلع القرن الثامن عشر كان أغلب الفرس الموجودين هم من التجار وأصحاب المصالح الاقتصادية، إذ لم يكن عدد كبير من الطلاب والعلماء الفرس في العراق حينذاك، لأن المراكز العلمية الشيعية الرئيسة كانت في إيران، ولم يأخذ العلماء والطلاب الفرس بالمجيء إلى العراق في أعداد كبيرة إلا في بداية ذلك القرن^(٥) فانتقل بذلك مركز الدراسات الشيعية من إيران إلى العراق، وتحديداً إلى كربلاء أولاً ثم إلى النجف (التابعتين إلى الحلة في تلك المرحلة)، وانتشرت اللغة الفارسية حينذاك انتشاراً واسعاً في مختلف المدن الشيعية، وأن الدولة العثمانية كانت قد ناصرت وراعت لغتها والمتكلمين بها من الموظفين، فقويت التركية إلى حد كبير، إلا أن ذلك لم يكن يعني بالضرورة إهمال اللغة العربية^(٦) فمن المعروف أن الدولتين (الفارسية والعثمانية) كانتا في سعي مستمر لاقتباس الثقافة وأخذها من العراق ومن غيره من البلاد العربية بطريق الاتصال بالعلوم والآداب، مما سهل لهما تكوين ثقافة علمية وأدبية، أدت إلى أن تستقل كل دولة بما توفر لها من تلك العلوم والآداب، مما يعني أن الاحتلال لم يكن مقصوراً على الجوانب السياسية والاقتصادية، بل يعني تنافس وتراحم واكتساب نصيب وافر من الثروة الأدبية^(٧).

من المعروف تاريخياً إن المراقد والمقامات الدينية قد جسدت أدواراً مهمة في ثقافات الشعوب والأمم وأكدت على الترابط الروحي والتماسك الوجداني بين أفراد المجتمع الواحد ونجد ذلك ليس على مستوى الديانة الإسلامية فحسب بل تجسد ذلك في معتقدات الديانات السماوية الأخرى ووفق المقاييس والأعراف التي نادت بها تلك الديانات حتى شاع مفهوم المراقد في ثقافات الشعوب بشكل عام وخاص على السواء، بل والأكثر من ذلك أنه ارتبط برحلة الإنسان الطويلة تاريخياً إلى الحد الذي اقترن به المرقد المقدس على استلهاهم المعاني السامية في الترابط المعنوي والروحي بين الإنسان وما يعتقد أو ما يؤمن به^(٨).

تألف المجتمع العراقي من عدة ديانات يأتي في مقدمتها الدين الاسلامي، إذ شكل المسلمون الغالبية العظمى من السكان تليهم ديانات مختلفة كاليهود، والنصارى، والصابئة، واليزيدية، وعقائد أخرى^(٩) على الرغم من تنوع التركيب الديني فقد عاش الجميع بحالة من الاستقرار والالتقاء والتأزر، بفضل مبادئ الدين الاسلامي السمحاء التي دعت الى احترام العقائد الدينية لترصين التماسك الاجتماعي، إذ سار المسلمون على قاعدة اساسية فرضتها عليهم طبيعة دينهم وهي، عدم التعرض لمختلف العبادات فلم يساء الى متعبد في عبادته او متدين في ديانته، الى جانب ذلك فإن الحرية الدينية مضمونة بالدستور ومكفولة بالتوافق الاجتماعي الذي احترمه البغداديون منذ اقدم الازمنة، فيقوم المسجد الى جوار الكنيسة او المعبد، لا فرق في نظرهم في حرمة وقسية مراكز العبادة، شعارهم جميعاً الدين لله، لذلك امتزجت هذه الاديان بدرجة عالية من التآلف تجمعها رابطة الشعور المشترك بالوحدة الوطنية العراقية^(١٠).

امتازت ولايات العراق الثلاث (بغداد، الموصل، البصرة) خلال عهد المماليك وخاصة في عهد الوالي داود باشا بكثرة المؤسسات الدينية للمسلمين مثل المساجد والجامعات والتكايا والحسينيات والمدارس ومجالس الوعظ فضلاً عن الكنائس والاديرة واماكن العبادة التابعة إلى الاقلية اليهودية^(١١)، وقد نالت هذه المؤسسات قدسية كبيرة من مختلف الطوائف الإسلامية والأقليات الدينية الأخرى، وتعددت أهدافها فهي فضلاً عن



كونها أماكن لإقامة الشعائر الدينية فإنها كانت بمثابة مدارس لتدريس العلوم الإسلامية واللغة العربية ولتعليم القراءة والكتابة للمبتدئين ومراكز للاجتماعات العامة يلتقى فيها أبناء المجتمع في عموم العراق في الأعياد الدينية والمناسبات الاجتماعية والوطنية على حد سواء^(١٢)،

أما بالنسبة في ولاية بغداد التي تعد المركز الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في العراق فسيكون تركيز موضوع الدراسة عليها تقريباً، فقد ازداد عدد المؤسسات الدينية في بغداد لزيادة عدد السكان المسلمين فيها، وقيام البعض بإنشاء هذه المؤسسات لاسيما أهل الخير والإحسان وأبناء الطبقة الميسورة، فضلاً عن دور السلطة الحاكمة في هذا المجال^(١٣)، في ترميم المساجد القديمة وإنشاء أخرى جديدة. ومن أشهر الجوامع القديمة " جامع الإمام موسى الكاظم ومحمد الجواد (عليهما السلام) وجامع الإمام أبو حنيفة وجامع الشيخ معروف وجامع براتنا وجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني^(١٤)، ويشرف على المؤسسات الدينية للمسلمين شريحة اجتماعية ودينية تتألف من الفقهاء والوعاظ والخطباء، يقومون بإرشاد الناس ووعظهم عن طريق الخطب إلى أهمية الالتزام بمبادئ الدين الإسلامي والسنة النبوية المطهرة^(١٥).

ثالثاً: المساجد ودورها في ترسيخ الجانب المعرفي للمجتمع العراقي خلال عهد المماليك

١٨٣١-١٧٤٩

كان للمسجد عبر التاريخ الإسلامي أدوار عظيمة الشأن، بالغه التأثير في المجتمع الإسلامي، فكان البيت الجامع الذي يختلف إليه المسلمون للعبادة، ولتسيير شؤونهم العامة، ولتدبير أمور دنياهم، وهو في الوقت نفسه مؤسسة تعليمية وثقافية يفتد إليها المسلمون لتعلم القراءة والكتابة، والنهل من ميادين العلم والمعرفة، وإلى جانب الرسالة الروحية والتربوية والتعليمية للمسجد فقد قام بأدوار اجتماعية مهمة، وثقت الصلة بين المسجد وبين محيطه، يوم أن أحيا دوره في حلّ مشكلات المجتمع، وأعاد الاهتمام بالأدوار المختلفة التي كان يقوم بها مثل: إقامة المشاريع التي تسهم في تنمية المجتمع من تعليم الكبار، ومحو الأمية، وتبني مصحة للمتضررين، ومحل لعقد الزواج، وبناء دور للمشردين، وإنشاء صناديق للزكاة وستعرض هنا اهم المساجد ودورها في إثراء العادات والتقاليد للمجتمع العراقي وخاصة في مدينة بغداد على اعتبار انها تمثل سلطة القرار في العراق والتي كان لها دوراً مهماً في إرساء دعائم الحياة الفكرية في العراق أبان عهد المماليك. وهي:

١: جامع العادلية الصغير: بعد جامع العادلية الصغير من اول الجوامع التي بنيت في عهد عادل خاتون وأمر منها وذلك في عام ١٧٤٧، يقد هذا الجامع في محله الدنكية من محلات الجانب الشرقي (الرصافة) من بغداد القريبة من نهر دجلة، بالقرب من الجسر الوحيد في بغداد آنذاك ومكانه الان هو بالقرب من جسر الشهداء الحالي.

وقال السيد محمد سعيد الراوى " هو جامع صغير واقع على يسار السالك من سوق الصفارين على طريق الجسر عند منتهى الدرب الواقع امام بناء مطبعة الحكومة و جامع مشتمل على مصلى وصفه امامه وحجرتين



عند مدخل الباب على يسار الداخل متجهة بابها نحو القبلة، ويدار هذا الجامع من قبل المتولى عليه الذى يلى اوقاف جامع عادلته خاتون الكبير او العادلية، وهو ايضا من ابنة عادلته خاتون بنت الوزير فاتح همدان احمد باشا، وزوجه المرحوم الوزير سليمان باشا، وكان قد تداعى للسقوط فعمره متولىه إذ ذاك ابراهيم افندى المعروف بالميز وذلك فى سنة ١٣١٨،^(١٦)

ومن الملاحظ من الوقفية التى اوقفتها عادلته خاتون الى هذا الجامع والمؤرخه فى عام ١٧٤٩ " انه يُعطى عشرة آقجات الى محافظ المكتبة " مما يدل على ان لهذا الجامع مكتبة تحوى مجموعه من المصادر التى كانت محط انظار الباحثين وطالبى العلوم و كان للمسجد دور هام فى ترسيخ العادات والتقاليد الإسلامية لدى المجتمع البغدادي، فضلاً عن ذلك فقد كان له دوراً فى إرساء القيم والاعراف العشائرية العربية الاصيله^(١٧).

٢- جامع العادلية الكبير: أنشأته السيدة عادلته خاتون خلال المدة (١٧٤٩-١٧٥٤) كما دلت الكتابات الموجود فى مدخله اى بعد سنوات قليلة من إنشائها لجامع عادلية الصغير (٤٢)، تبلغ مساحته الكلية بحدود (٩٥٠) متر مربع، ومساحة حرم الصلاة بحدود (٦٠٠) متر مربع، ويستوعب حوالى (٤٠٠) مصلياً، أما بالنسبة إلى وصف الحرم فهو مستطيل الشكل مساحته بحدود (٣٠ × ٢٥ متر مربع) مبنى من الطابق، فى حين يرتفع السقف إلى (٥) امتار، وقد زين جدرانه من الداخل بالآيات القرآنية، فضلاً عن ذلك فانه يحتوى على منارة كبيرة ترتفع بحدود ٢٨ متراً، وقبة ومنبر من الخشب وقد وصفه السيد محمود شكرى الالوسى بقوله " فيه مصلى كبير ومنارة شامخة، فيه مدرسة فى الطابق الذى فوق الباب، وخزانة كتب، أنشأته صاحبة الخيرات عادلته خاتون بنت احمد باشا الذى تولى إيالة بغداد لاثني عشر سنة " ^(١٨).

كما وصفه الشيخ عباس بن جواد البغدادي بقوله " مسجد عادلته خاتون من بنات وزراء بغداد السابقين وهو جامع جمعة وفيه مدرسة ومثدنة "، كما وصف السيد محمد سعيد الراوى الجامع بقوله " هو الجامع الواقع على شارع النهر تجاه المحكمة الشرعية يبعد عن جامع الصاعغة مسافة ربع ميل وهو جامع اشتمل على مصلى واقع على يمين الداخل اليه، ومنارة عالية واقعة على الركن الغربى للمصلى، وعلى يمين المصلى رواق صغير لصلاة من فاته صلاة الجماعة فيصلى هناك منفرداً " ^(١٩).

وقد الحقت عادلته خاتون بالجامع مدرسة لتدريس العلوم العقلية منها والنقلية، واختصت بالفقه الحنفى مما شجع الطلاب على الالتحاق بهذه المدرسة الجامعة مما كام له الأثر الكبير فى ترصين القاعدة الاخلاقية للمجتمع البغدادي، وكانت هذه المدرسة تشغل عدداً من الغرف فى الطابق العلوى من الجامع، وضمت اليها خزانة كتب لتكون عوناً لمدرسيها وطلبتها على حد سواء، وحددت عدد طلبتها بخمسة عشر طالباً وهو عدد كبير قياساً الى المدارس الاخرى، وقد كان المدرسون يتقاضون رواتب ^(٢٠)، وقد عنيت عناية فائقة بهذه المدرسة فقد كانت تشرف هى على شؤونها وادارتها، ومما تجدر الإشارة إليه أن المدرسون كانوا يؤكدون على العادات والتقاليد التى تؤكد عليها القرآن الكريم وسنة النبي الاكرم (صلى الله عليه و آله وسلم) وسيرة صحبه الاكرام ^(٢١).



٣ - جامع الامام الاعظم: خلال عهد المماليك وتحديدًا "الوالي سليمان باشا (ابو ليلة) جدد المرقد وانشئت المنارة والقبّة عام ١٧٥٧م، وذكر السيد هاشم الاعظمي في كتابه تاريخ جامع الامام الاعظم ما نصه " لم يدون التاريخ اسماء المدرسين الذين درسوا في مدرسة ابي حنيفة من عام ١٣٨٠ ولغاية ١٧٥٢، ولم اجد اثرًا للذين تعاقبوا في التدريس بين التاريخين، ولكنني عثرت على اسماء بعضهم ما بعد هذا التاريخ بواسطة السندات العثمانية وأولهم هو"

١. السيد عبدالله افندي مدرس جامع الامام الاعظم (رض) وجدت اسمه في الوثيقة التاريخية الموجودة لدى كان قد وقعها بامضائه وكتب عنوان وظيفته فيها وذلك عام ١٧٥٢ اي في عهد الوالي المملوكي سليمان باشا (١٧٤٩-١٧٦١).

٢. السيد شهاب الدين مدرس جامع الامام الاعظم (رض)، كان عالماً من اعلام الفقه واللغة وشيخاً بارزاً بين اقرانه وجدت اسمه في الوثيقة التي كان قد وقعها وذكر فيها عنوان وظيفته وهو مدرس وذلك بتاريخ ١٧٧١، اي في عهد الوالي المملوكي عبد الله باشا (١٧٧٦-١٧٧٨).

٣. العلامة السيد مصطفى افندي المدرس بن احمد واصله من طي، وجدت توقيعها في وثيقة يرجع تاريخها الى عام ١١٩٥ هـ والتي تقابل سنة ١٧٨٠ ووثيقة أخرى وقعها في سنة ١٢٠٩ هـ والتي تقابل ١٧٩٥ وقد ذكر فيها عنوان وظيفته وهو مدرس اي في عهد الوالي المملوكي سليمان باشا الكبير (١٧٨٠-١٨٠٢)، ووجدت الامر الذي تعين فيه ايضاً مفتياً لبغداد دار السلام وذلك في عام ١٧٩٤^(٢٢)، ومما تجدر الاشارة اليه ان السيد مصطفى افندي كان عالم في التفسير والحديث والاصول والفقه والكلام، واسع الاطلاع بعلوم اللغة العربية^(٢٣)

٤. العلامة السيد عبد الله افندي الالوسي، درس في مدرسة ابي حنيفة النعمان اربعين عاماً توفي بمرض الطاعون عام ١٨٣٠ في زمن علي باشا اللاظ والي بغداد، علي باشا (١٨٠٢-١٨٠٧)، سليمان باشا الصغير (١٨١٠-١٨٠٨)، عبد الله باشا (١٨١٠-١٨١٣)، سعيد باشا (١٨١٣-١٨١٦)، داود باشا (١٨١٦-١٨٣١) وتعد مدة تدريسه اطول مدة، والعلامة الالوسي فخر المدرسين ورئيس العلماء في بغداد دار السلام وولده العلامة السيد محمود شكرى الالوسي^(٢٤).

رابعاً: الطائفتان اليهودية والمسيحية، ومؤسساتها الدينية ودورها في تماسك المجتمع في العراق:

مارس اليهود العراقيون في ظل الحكم المملوكي صلاتهم وطقوسهم اليومية في تلك المعابد بكل حرية، الا انهم باختلاف مذاهبهم وتعددتها، سلكت بعض المذاهب مسالك كثيرة واخذت تغير في تعاطي مع تلك المعابد بحسب الدوافع، نرى بعض معابد وبالخصوص الحاخام بيع أماكن الصلاة على التجار، لان المعابد باستمرار بحاجة إلى الأموال فهنا يكون المكان مخصص للذي يدفع اكثر ويكون قريب من الحاخام في المقدمة ومن بعدهم اليهود العاديين من الطبقات الاجتماعية وحسب وضعهم الاجتماعي^(٢٥)، وكذلك لم



تكن بالمعابد جلسه محدد لأنها تختلف تبعاً للطراز المعماري للمعبد، وايضا تتغير نوع الصلاة بحسب نوع المذهب اليهودي فمثلاً بالمعابد الارثوذكسية تتميز بالحاجز المادي الذي يفصل الرجال عن النساء وهذا الحاجز يتخذ شكل ساترا من القماش بحيث يمكن إزاحته لتداول الكتب الدينية^(٢٦).

أما المعابد الاصلاحية. فيتحدد جلوس اليهود حسب انتماءاتهم الاجتماعية والطبقية فعلى سبيل المثال يجلس الحاخام او الفقيه وأصحاب المكانة الاجتماعية المرموقة في المقدمة، ويجلس من خلفهم الأثرياء، وبعد ذلك يجلس من خلف هؤلاء اليهود البسطاء، ومن جانب آخر فان هذه المعابد الاصلاحية لا تكلف النساء من الناحية الشرعية بالذهاب الى الصلاة في الكنيس بل تؤدي الصلاة في البيت ولا ضرر في ذلك، ومن هنا فان هذه الكيفية التي تذكر في صلاة الطائفة اليهودية لم نجد مثيل لها عند الديانتين المسيحية او الاسلامية وهو تقديم ذوو الجاه والاموال أو بيع مكان الصلاة إلا عند اليهود الاصلاحين لان صلاتهم تتغير تبعاً للعامل السياسي كما أشارت بعض المصادر ومثل هذا العمل يفرغ مكان العبادة عن محتواه الذي هو مكان مخصص للعبادة وتلغى به الفوارق الطبقية وتنتهي به القبلية والتعصب حتى أنه يفقد المكان حيوته وثمرته يصبح كمؤسسة سياسية ربحية هما كسب الناس على اساس الوضع الاجتماعي والسياسي. لذا يذكر في الجزء الثاني في الموسوعة اليهود للكاتب عبد الوهاب المسيري أن أهمية الشعائر تحدد حسب شعائر المجتمع الاغلبية^(٢٧).

أما الطائفة المسيحية فقد كانت لها مجموعة من الكنائس التي انتشرت في بغداد وبقية المدن العراقية ابان عهد المماليك منها (بيعة الميدان كنيسة السريان و كنيسة الابهاء الكوشيين وكنيسة ام الاحزان وغيرها من الكنائس) ونذكر مثالين على هذه الكنائس وهي:

١. كنيسة الابهاء الكرمليين: افتتح هذه الكنيسة الاب عمانوئيل بابيه في ٣/ تموز / ١٧٣١ على اسم القديس توما، وكان هذا القديس قد وصل إلى بغداد سنة ١٧٢٨، واسندت اليه مهمة القنصلية الفرنسية في سنة ١٧٤١^(٢٨)، وصار اسقفًا على اللاتين سنة ١٧٤٣، وبقي في بغداد حتى وافاه الاجل بمرض الطاعون في عام ١٧٧٣.
٢. كنيسة القديسة مسكنته: بعد أن فقد الكلدان كنيستهم في الميدان باستيلاء الارمن عليها، تبرعت سيده اسمها ((حمام)) بدارها الواسعة لتكون مسكنًا ومعبدًا للقدس، وكانت هذه الدار ملاصقة لفناء الكنيسة الأولى في محلة الميدان، وصادق الوالي سليمان باشا الكبير على تلك الهبة^(٢٩). يرجح بعض المؤرخين إلى أن الكنيسة قد بنيت في تلك الدار بعد سنة ١٧٤٦، وانها اقيمت بالقرب منها كنيسة على اسم السيدة العذراء (ع)^(٣٠).

وهكذا كانت المظاهر الفكرية البارزة وخاصة فيما يتعلق بقضية إرساء العادات والتقاليد في العراق بصورة عامة وفي بغداد بصورة خاصة، وتجلت بوضوح النواحي العلمية التي برزتها وهذبها وصقلت حلقات المساجد ومجالس العلم وانتشرت الكتب العديدة في شتى المجالات المعرفية والعلمية^(٣١)، وكانت المدارس في بغداد عبارة عن اماكن صالحة للعلم والتعليم، وقد عنيت تلك المدارس في تدريس العلوم والآداب والتربية، كما انها عنيت بالاختصاص فقد كان كل موضوع مدرسه المختص، وكان مجال النقاش مفتوحاً امام



الطلاب وكانت للمناقشة بين الاستاذ والتلميذ اداب خاصة تكفل للاستاذ وقاره وهيئته ومكانته، كما تحقق للطلاب طريق الفهم والتعليم^(٣٢) وان المدارس العراقية قامت بإداء رسالتها التعليمية وقدمت خدمات جلية في نهضة العلوم الدينية في التفسير والحديث والفقه والفرائض، والعلوم الادبية كاللغة والنحو والصرف والعروض، والعلوم الرياضية والعلوم العقلية كالمنطق وعلم الكلام والاصول والعلوم الطبيعية، واصبح لتلك المدارس شخصية بارزة في عالم الثقافة^(٣٣).

الخاتمة

من خلال قراءة موضوع البحث توصل الباحثان إلى عدد من الاستنتاجات وهي:

كان العراق تحت حكم المماليك الذين استولوا عليه منذ سنة ١٧٤٩م واستمروا حتى سقوط آخر ولايتهم داود باشا عام ١٨٣١ م. وقد عرف المماليك بنوع ما بحسن إدارة الأمور في العراق، الأمر الذي جعل الناس في العراق يميلون إليهم، كما كان للسلطات العثمانية مشاكل كثيرة في ولاياتها المتفرقة لذلك تركت شؤون العراق لحكم المماليك، وكان العراق في تلك المرحلة يعاني من مشاكل كبيرة، الا انه مع ذلك كان قد شهد نهضة اقتصادية واجتماعية وفكرية وثقافية، لا زالت اثارها باقية الى الان ولعل المساجد والجوامع ما هي الا شواهد تتحدث عن تاريخ تلك المرحلة من تاريخ العراق الحديث، وخاصة اذا ما علمنا انها بقيت لاكثر من ثمانين عاماً تركت بصمات واضحة في حياة المجتمع العراقي، مع بروز شخصيات سياسية وادبية وفكرية لازال تراثهم الى الان يتناول بين ايدي المثقفين والقراء ولعل شخصية ابي ثناء الالوسي وعبد الباقي العمري وغيرهم هي من كان لها السبق في هذا المجال.

على الرغم من التنوع الاثني والاجتماعي الذي كام يتميز به المجتمع العراقي آنذاك، إلا إن كل فئة أو طائفة وبغض النظر عن انتماءاتها العرقية والدينية كانت تتمتع بشخصية وحرية كاملة دون قيود أو مضايقات، وكانت سمة التعايش السلمي هي السمة التي امتاز بها المجتمع العراقي الذي تمسك وبشكل كبير في معتقداته الدينية ولحمته الاجتماعية. وهنا برزت قضية المؤسسات الدينية ودورها الكبير في التفاعل بين مختلف طبقات المجتمع فلم تكن هناك فوارق في ممارسة العادات والتقاليد التي يحكمها مجتمع واحد وبيئة واحدة فكان للمسجد وللكنيسة الدور البارز في الحفاظ على تماسك المجتمع العراقي ولعل شخصية الوالي داود باشا من الشخصيات التي اهتمت بالنهضة الاجتماعية والفكرية في العراق، اذ قام بتأسيس مدارس عديدة، والاعتناء بالعلم والمكتبات الملحقة بالجوامع، ورعاية الطلبة، واعطائهم المنح والمراتب المالية من حاصل الوقفيات المخصصة للانفاق على الطلبة والعلماء، رواد الحركة الفكرية والنهضة العلمية في البلاد، وكانت له علاقات وطيدة مع العلماء والشعراء، ومن بينهم عبدالله الآلوسي، وعبدالرحمن الروزبهاني وعثمان بن سعد، ومحمود أبو ثناء الالوسي، وفي حقبة انكمش فيها العلم في المساجد والمدن الدينية او يكاد، ولولا مدارس التجف وبغداد الدينية وغيرها من المدن التي غرز مفهوم القيم والتقاليد المجتمعية.



الهوامش

١. خليل البصير، الدرر المنظومة والصرر المختومة، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، بغداد، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد (٢٥)، ١٩٧٥، ص ١٣.
٢. عماد عبد السلام رؤوف، التأريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، مطبعة الثقافة العامة، الموصل، ١٩٨٧، ص ٢٨.
2. Charles Trip، A History of Iraq، Cambridge، 2000، P.39.
٤. كان مجتمع العراق الشيعي إلى نهاية القرن السادس عشر الميلادي مجتمعاً عربياً على العموم، وفي ذلك الوقت سكن الكثير من الفرس في مدن (كربلاء، والنجف، والبصرة، وبغداد، وسامراء، والحلة) مستحويين على قسم لا يستهان به من تجارتها، إلا أن الكثير من أولئك الفرس هربوا إلى إيران بعد الاحتلال العثماني الثاني بغداد سنة ١٦٣٨م، الذي أسفر عن مقتل زهاء (١٧٠٠) من الفرس. للمزيد ينظر: إسحاق نقاش، شيعة العراق، انتشارات المكتبة الحيدرية، قم المقدسة، ١٩٩٨، ص ٢٥.
٥. كان الاحتلال الأفغاني (السنّي) لأصفهان سنة ١٧٢٢م، ومحاولات نادر شاه لتشجيع التقارب السنّي- الشيعي، ومصادرة الكثير من الاوقاف التي تدعم رجال الدين الشيعة في إيران، قد شردت المئات من عوائل العلماء الذين هرب الكثير منهم إلى العراق خلال المدة المحصورة بين سنتي (١٧٢٢-١٧٦٣م). للمزيد ينظر: إسحاق نقاش، المصدر السابق، ص ٢٦-٢٧؛ إبراهيم الموسوي الزنجاني، جولة في الأماكن المقدسة، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٥، ص ٨٤.
٦. إسحاق نقاش، المصدر السابق، ص ٢٦؛ عباس العزاوي، تاريخ الأدب العربي في العراق، ج ٢، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٦٠م، ص ١٨.
٧. عبد الرزاق الهلالي، تيارات ثقافية بين العرب والفرس، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٧٢، ص ١٧٩؛ عبد الله محمد الحسيني، مصادر الفكر العربي الاسلامي في الجزيرة العربية، مطبعة حضرموت، صنعاء، ١٩٨١، ص ٤١٧.
٨. محمد صادق الكرباسي، دور المراقدين في حياة الشعوب والامم، مطبعة الكفيل، كربلاء المقدسة، ٢٠١٥، ص ٢٥.
٩. منذر عبد المجيد البدرى، جغرافية الاقليات الدينية في العراق، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الجغرافية، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٥، ص ١٤٩.
١٠. عباس فرحان ظاهر، الحياة الاجتماعية في مدينة بغداد ١٩٣٩-١٩٥٨ دراسة تاريخية، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية ابن رشد، جامعة بغداد عام ٢٠٠٣، ص ٨٢.
١١. علي الوردى، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٥، ص ٢٩٢.
١٢. طارق نافع الحمداني، ملامح سياسية وحضارية في تاريخ العراق الحديث والمعاصر، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ١٩٨٩، ص ٣٥.



١٣. طارق نافع الحمداني، المصدر السابق، ص ٣٦.
١٤. يونس الشيخ ابراهيم السامرائي، تاريخ مساجد بغداد الحديثة، ط ١، مطبعة الامة، بغداد، ١٩٧٧، ص ٤٢-٥٥.
١٥. سوسن عبد العزيز عبد الوهاب، التطورات الاجتماعية في العراق ١٩٥٨-١٩٦٣، رسالة ماجستير غير منشورة، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية، الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٤، ص ٤٦.
١٦. عماد عبد السلام رؤوف، عادلة خاتون صفحة من تاريخ العراق، ط ١، مكتبة الجواد للنشر والتوزيع، بغداد، ١٩٩٧، ص ٣٥.
١٧. مجهول، السلام بعد العصور العباسية، د. مط، بغداد، ١٩٥٨، ص ١٤١-١٤٢.
١٨. عماد عبد رؤوف، عادلة خاتون، ص ٤٠.
١٩. المصدر نفسه، ص ٤١.
٢٠. المصدر نفسه، ص ٤٣.
٢١. المصدر نفسه، ص ٤٦.
٢٢. هاشم الاعظمي، تاريخ جامع الامام الاعظم ومساجد الاعظمية - خاص بجامع الامام ابي حنيفة ومدرسته العلمية، ج ١، د. مط، بغداد، ١٩٦٤، ص ٩٧.
٢٣. المصدر نفسه، ص ٩٨.
٢٤. غادة حمدي عبد السلام، اليهود في العراق ١٨٥٦-١٩٢٠، مطبعة مكتبة مديبولي، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٥. وكذلك ينظر: سعد سلمان المشهداني، تاريخ الطائفة اليهودية في العراق، مجلة مسارات، العدد ١٣، السنة الرابعة، ٢٠٠٩، ص ٢٨.
٢٥. جمال الدين احمد بن علي الحسيني ابن عتبة، عمدة الطالب في انساب آل أبي طالب، عني بتصحيحه محمد حسن الطالقاني، دار الاندلس، النجف، د. ت، ص ٣٠٧-٣٠٩.
٢٦. حمد الله بن أبي بكر القزويني، نزهة القلوب، طهران، ١٣٣٦ هـ ش، ج ٣، ص ٤٨.
٢٧. ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار، ج ١، المطبعة العصرية التقديمية، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٢٢٠.
٢٨. عباس فرحان ظاهر، المصدر السابق، ص ٨٥.
٢٩. محمود فهمي درويش وآخرون، دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦١، ص ٤٢٦.
٣٠. يوسف يحيى طعماس، التوزيع المكاني لاستعمالات الارض الدينية في مدينة بغداد، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٧، ص ٥٦-٦٠.
٣١. بطرس حداد، كنائس بغداد عبر التاريخ، مجلة بين النهرين، العدد ٣٢، السنة الثامنة، ١٩٨٠، ص ٤٢٤.
٣٢. قام الباحثان بزيارة مكان الكنيسة في منطقة الميدان بالعاصمة بغداد، وهي الآن بنيت مكانها كنيسة وتقع بالضبط خلف دار الكتب والوثائق العراقية من جهة اليمين على مسافة اقل من ((مئة متر))





المصادر والمراجع

أولاً: الكتب العربية والمعرّبة:

- إبراهيم الموسوي الزنجاني، جولة في الأماكن المقدسة، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٥.
- ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار، ج ١، المطبعة العصرية التقدمية، القاهرة، ١٩٤٨.
- إسحاق نقاش، شيعة العراق، انتشارات المكتبة الحيدرية، قم المقدسة، ١٩٩٨.
- جمال الدين أحمد بن علي الحسيني ابن عنبه، عمدة الطالب في انساب آل أبي طالب، عني بتصحيحه محمد حسن الطالقاني، دار الاندلس، النجف، د. ت.
- حمد الله بن أبي بكر القزويني، نزهة القلوب، طهران، ١٣٣٦ هـ، ش، ج ٣.
- طارق نافع الحمداني، ملامح سياسية وحضارية في تاريخ العراق الحديث والمعاصر، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٩، بيروت.
- عباس العزاوي، تاريخ الأدب العربي في العراق، ج ٢، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٦٠ م.
- عبد الرزاق الهلالي، تيارات ثقافية بين العرب والفرس، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٧٢.
- عبد الله محمد الحسيني، مصادر الفكر العربي الاسلامي في الجزيرة العربية، مطبعة حضرموت، صنعاء، ١٩٨١.
- علي الوردی، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٥.
- عماد عبد السلام رؤوف، التأريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، مطبعة الثقافة العامة، الموصل، ١٩٨٧.
- _____، عادلته خاتون صفحة من تاريخ العراق، ط ١، مكتبة الجواد للنشر والتوزيع، بغداد، ١٩٩٧.
- غادة حمدي عبد السلام، اليهود في العراق ١٨٥٦-١٩٢٠، مطبعة مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٨.
- مجهول، السلام بعد العصور العباسية، د. مط، بغداد، ١٩٥٨.
- محمد صادق الكرباسي، دور المراقدة في حياة الشعوب والامم، مطبعة الكفيل، كربلاء المقدسة، ٢٠١٥.
- محمود فهمي درويش وآخرون، دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦١.
- هاشم الاعظمي، تاريخ جامع الامام الاعظم ومساجد الاعظمية - خاص بجامع الامام ابي حنيفة ومدرسته العلمية، ج ١، د. مط، بغداد، ١٩٦٤.
- يونس الشيخ ابراهيم السامرائي، تاريخ مساجد بغداد الحديثه، ط ١، مطبعة الامة، بغداد، ١٩٧٧.

ثانياً: الرسائل والاطاريح الجامعية:

- سوسن عبد العزيز عبد الوهاب، التطورات الاجتماعية في العراق ١٩٥٨-١٩٦٣، رسالة ماجستير غير منشورة، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية، الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٤.



- عباس فرحان ظاهر، الحياة الاجتماعية في مدينة بغداد ١٩٣٩-١٩٥٨ دراسة تاريخية، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية ابن رشد، جامعة بغداد عام ٢٠٠٣.
- منذر عبد المجيد البدرى، جغرافية الاقليات الدينية في العراق، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الجغرافية، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٥.
- يوسف يحيى طعماس، التوزيع المكاني لاستعمالات الارض الدينية في مدينة بغداد، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٧.

ثالثاً: الدوريات:

- بطرس حداد، كنائس بغداد عبر التاريخ، مجلة بين النهرين، العدد ٣٢، السنة الثامنة، ١٩٨٠.
- خليل البصير، الدرر المنظومة والصرر المختومة، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، بغداد، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد (٢٥)، ١٩٧٥.
- سعد سلمان المشهداني، تاريخ الطائفة اليهودية في العراق، مجلة مسارات، العدد ١٣، السنة الرابعة، ٢٠٠٩.

رابعاً: كتاب باللغة الانكليزية:

- ___ Charles Trip، A History of Iraq، Cambridge، 2000.